عرض ومراجعة على كتاب خطى

"الثورة الهندية مع القصيدتين الهمزية والدالية"

للعلامة فضل حق الخير آبادى

سرور عالم الندوى ☆

إن الهند لا تزال تحت الحكم الإسلامى أكثر من ثمان مائة عام من حملات محمود الغزنوى إلى حكم الامبراطور أورنجزيب الذى وحد الهند كلها تقريباً تحت حكمه، لكن هذا الامبراطور كان آخر امبراطور قوى فى أباطرة المغول المسلمين، فقد جاء بعده خلفاء ضعاف انكمش نفوذهم، وأخذت الدولة الإسلامية الواسعة تتهاوى من فوق القمة بالخلافات والحزازات الداخلية وتتفتت شيئاً فشيئاً،

فبهذا التفتت والضعف استفاد التجار الأوروبى و وضعوا العراقيل وأخذوا يتصارعون على اللقمة الدسمة الكبيرة، وبسطوا نفوذهم على البلاد، و زادوا عتوا فى تنفيذهم وخصوا المسلمين

☆ قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة عليكره الاسلامية

بأنواع من التنكيل والاضطهاد البشع، فقام الامير سراج الدولة فى البنغال والسلطان تيبو فى الجنوب بالهجوم عليهم حتى وقعت الثورة الجامحة سنة ١٨٥٧م لانقاذ البلاد من هذا التسلط والدمار، لكن الاقدار لم تساعدهم وهم فشلوا فيها، فبعد هزم المسلمين وفشلهم قد عمل المستعمرون الغاصبون على ازلالهم ومطاردتهم وحكموا عليهم بالإعدام والنفى والقضاء على كل حيوية فيهم ،لأن المسلمين هم الذين كان بيدهم لواء الثورة وكانوا فى طليعة الثوار فى كل الهند، فتتا بعت عليهم النكبات حتى يطحنوهم طحنا ويفتكوا فتكاً ذريعاً، اننى لا احاول ان اقدم تفصيلاً، فقد تقشعر منه الجلود و يعجزالقلم عن البيان، سجل التاريخ بمداد من دموع العيون الباكية ودماء القلوب المقروحة هذه المأساة والجريمة والعدوان،

فقد وقع العالم الكبير والأديب اللبيب والشاعر الشهير العلامة فضل حق الخير آبادى (١٢١٢ھ ١٢٧٨ھ) فريسة لهذه النكبة والمحنة والابتلاء، ويتهم بالخروج على الحكومة الانكليزية سنة ثلاث وسبعين ومائتين والف من الهجرة، فحبس ونفى إلى جزيرة من جزائر السيلان، حتى توفى فيها سنة ١٨٦١م / ١٢٧٨ھ،

فإنه كتب فى هذا النفى والحبس كتاباً وقرض قصيدة عن هذه الثورة فى اللغة العربية وسماه "الثورة الهندية مع القصيدتين الهمزية والدالية"

وهذا الكتاب موجود فى المكتبة العامة "مولانا آزاد" لجامعة عليكره الإسلامية خطياً ، الذى يتحدث عن هذه الفترة

وأو ضاع الهند المظلمة الحالكة، ويمثل وجهة النظر الثورية، والآن اقدم امامكم كلمات عديدة حول عرض ومراجعة هذا الكتاب الخطى المهم فى اللغة العربية للكاتب الهندى العظيم العلامة فضل حق الخير آبادى.

يقع هذا الكتاب فى١٢٠صفحة من المقاس المتوسط الذى صدر فى عام ١٢٧٦من الهجرة، كما تدل عليه هذه العبارة التى كتبت على الصفحة الاخيرة، وهى

"تمت القصيدتان فى شهر رجب سنة ١٢٧٦هـ يعنى الفاً ومائتين وستاً وسبعين من الهجرة المقدسة النبوية على صاحبها ازكى الصلاة و التحية وانا محبوس فى الجزيرة العربيّة، نجانى الله سبحانه منها برحمته الوسيعة وقدرته البديعة بجاه حبيبه وآله وعترته عليه وعليهم ازكى الصلوٰت واسنى التسليمات"

وإنه جعل الكتاب للنثر والشعر، أما النثر فهو يشتمل على ٦٢ صفحة وبعدها كتبت قصيدتان الهمزية والدالية، القصيدة الهمزية تشتمل على ١٨٨ بيت من ٦٣ صفحة إلى ٩٩ صفحةً، والقصيدة الدالية على١٠٠ بيت من ٩٩ صفحة إلى الصفحة الأخيرة،

فإن المؤلف قد تحدث فى النثر عن المحن التى حلت بالمسلمين حين النفوذ الانجليزى قد بسط فى سائر الهند وهم تسيطروا عليها، وعن الظروف القاسية التى مرت بها هذه شبه القارة فى عصورهم كالتنكيل والتقتيل والتدمير والتهجير والهتك

والفتك والنهب والارهاب والاحداث الفاجعة والوقائع المؤلة والغارات الهدامة والتضحيات المعصومة، بايضاح وصراحة،

ثم يتحدث عن تزايد النفوذ وانتشار الافكار المسيحية فی ابنائها، ثم جعل صفحات عديدة للحديث عن الخلاص والنجاة من. الاضطهاد والاعتداء والعدوان والتعسف و دعا الله له بالتواضع والتضرع ، فی أسلوب مسجوع ممتع علی نمط بديع الزمان الهمدانی والحريری، فوجد فيه السجع والقوافی والتعقيدات والغرائب، لأن هذا الأسلوب أسلوب ذلك الزمان كان شائعا شاملاً بين أوساط العلم والدين والأدب فی هذه شبه القارة الهندية خاصة كان لاينبغی لأی أديب وكاتب أن يخرج بهذا الطراز،

والآن أقدم شيئاً ملخصاً من هذا الكتاب الممتع يدل علی منهجه وغايته، وهو يقول بعد الحمد والصلوٰة،

''من قصتها ان النصاری البراطنة ، شحنوا صدورهم بالشحناء الباطنة' بعد ما تسلطوا علی ممالك الهند.واقطارها، قراها وامصارها واستولوا علی حدودها وثغورها، واحاطوا باعجارها وصدورها، وذلّلوا اعزة روسائها بالاستقصاء، ولم يذروا فيها من يُبدی لهم قرنه بالاستعصاء، هموا بان ينصّروا كلا من قطانها وسكانها ورؤسها ووجوهها واعيانها،

ليصير الناس كلهم كمثلهم من ملاحدة ، متوافقين علی ملة واحدة......... منهم من اعتدی واساء وارتكب الفظاظة والقساء فقتل الولدان والنساء ......فجمع النصاری علی ذالك الجبل

للحرب العوان، كثيراً من الجنود والاعوان ، فمن جنودهم اشياعهم البيضان، و منهم اجرائهم من اراذل الهنادك الخمّان، والمسلمين الذين ارتدوا بعلاء النصارى بعد الايمان، باعوا دينهم ببخس من الاثمان،

فغالوا كثيراً من النبلاء، وعذّبوا حباً جماً من هولاء بالقيود والجلاء وما بشق جداً من اشد البلاء،

ولكننى ارجو رحمة ربى العزيزالرحيم، البرالرؤف الكريم، الذى ينجى الضعفاء العاجزين من الفراعنة الجبابرة، فهو الجبار على كل جبير لكل كسير ولكل فقير و خسير، وهو الذى ينجّى نوحاً من الغرق و إبراهيم من الحرق، ويونس من بطن النون، وبنى اسرائيل مما كانوا يعانون، وكفى موسى وهارون، فرعون وهامان وقارون، وكفى المسيح مامكر الماكرون وكفى حبيبه المصطفى ماكان يمكربه الكافرون، فإن رمقنى صعوب، ولحقنى خطوب ومحقنى كروب، وحاقت بى ذنوب فلست بفضله بمبتئس، ولا من رحمه بمتّاس،

وأنا مظلوم مهضوم مضطر، ومسكين مستكين معتر، ادعوه مناحياً وابتهل إليه راجياً، وأناديه متضرعاً، بحبيبه إليه متذرّعاً،..... انه سامع الدعا واسع العطاء ، دافع البلاء، فهو الذى ارجوه لجلاء حزن الجلاء وبلاء حسن البلاء من الآلاء، يارب فانجنى مما انا فيه، يا معول المرتجين ياموئل الملتجين"

أما الحصة الشعرية التى تشتمل على القصيدتين الهمزية والدالية فهى قد صيغت بالقلوب المقروحة الجياشة والعيون

الباكية الفياضة، فاض هذا الشاعر الضعيف الأسير قريحة فيها على استيلاء المستعمرين وسوء حال الهنديين، اولهما الهمزية تحكي همزات الشياطين ثانيتها الدالية دالة على مايعانى وهما صورتان واضحتان، ومرآتان صافيتان للحياة ذلك الزمان التى محصورة بالوجع والتدمير والصعب والعدوان، ومحفوفة بالحبس والغل والإعدام والطغيان، بجودة السبك وروعة الاداء ومتانة التركيب وفخامة النسج، تظهر فيهما سيطرة الانجليز على هذه شبه القارة، واحوال الهند المؤلمة وأهوالها المدهشة والعيش فى المنفى والقيود الشاقة بغاية البراعة والقدرة فى هذا المجال الأدبى،

أقدم أبيات عديدة على سبيل المثال من القصيدة الهمزية التى تشتمل على ١٨٨ بيت، وهو يقول،

لجوى له لجوانحى ابراء * جمد الدموع وذابت الاحشاء
ولما الّم من النوائب والنوى * يبكى الصديق وتشمت الاعداء
حلّت عظام مصائب جلت بها * وهن العظام ودقت الاعضاء
اذاكنت فى عيش رغيد رابغ * هجم الكروب وفاجئت ارزاء
شجن الحقود وصدورهم حتى بدت * بالضغن من افواههم مغضاء
قد ضيقوا عيشى علىّ فعفته * ونسيت عيشاً كان فيه رخاء
ياويل سجن لا مبال بساحة * وكنيفه مافيه قط خلاء
منعوا اشدّ المنع ان يلقانى * الأحباب والأخوان والابناء
قد مات احياء من الأسراء * والباقون لا موتى ولا احياء

ما فيه للموتى صلوة جنازة • وثرىً ولا كفنٌ لهم وغطاء
قد سلّط الانصار فى امصارنا • أن صار انصاراً لهم سفهاء
كم خرّبوا بلداً ويذروا به • بلداً فصار كأنه بيداء
لم اقترف ذنباًسوى ان ليس لى • مع هؤلاء مودّة وولاء
يارب عجّل أن يكون لما شجاً • فى من شجونى فى الحلاء جلاء
لم اقترف عملاً يثاب وإنما • قولى وفعلى وسمتة واناء
لكن فضلك واسع يرجى به • عن علتى ومآثمى الابراء

وأما القصيدة الدالية فهى تشتمل على ١٠٠ بيت منها

عُودى فعودى مريضاً دايه عادى • أشفى على الحين حتى عاده العادى
داء دواه عياء لادواء له • جِمامه حاضر من سقمه البادى

ثم يقول فى الانجليز ونكباتهم القاسية

قد انجدوا واغاروا قتّلوا نهبوا • وافدوا فى النواحى كل افساد
هدوا المعابد واجتاحوا المساجدو • اغتالوا عباداً غلوا فى قتل عُبّاد
من كان منحرفاعن طوعها فشلوا • لم يسمعوا أمرحكام وقوّاد
حُبست فى لسجن مهجوداً ولم يذروا • عندرفيقاً كخبّاز وتجّاد
قدكسونى كساءً بعدما سلبوا • الكساء وانتزعوا لبسى وازدادى
أعطوا وطاء غليظاً شائكاً خشناً • لنوم لين بلين الفرش معتاد،

هكذا ينتهى هذا الكتاب الممتع على نموذج من النثر والشعر للعلامة الخير آبادى، يصور بهما تصوير أوضاع ذلك

الزمان محفوفة بالعدوان والطغيان، ويستحق أن يخرج من الذبول والذهول إلى النشر والذيوع لكي يستفيد الناس ويطلع على اوضاع الهند في عصر الانجليز .

☆☆☆